يسر الإسلام وسماحته

الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح

الإسلام هو الدين الوحيد الذي احتوى بين دفّتيه منهجاً متكاملاً، لديه القدرة الكاملة، والشاملة على إتيان النفوس، من أبوابها الطبيعية، والتغلغل فيها من طريق مؤثّراتها الفطرية، التي لا تجد النفس السوية معها مناصاً إذا مسّتها إشراقات الحق والخير، من التسليم إليها، والاستجابة لها.

لقد كان الإسلام ـ ولا يزال ـ دين الفطرة النقية، والتشريع السمح الذي يتسم بالسهولة واليسر، والبعد عن التشدد والتعقيد، في كل مناحيه، ومقاصده ومراميه.

راعى اللّه في الإسلام ما تقتضيه النفوس، وما جبل عليه الخلق، فجعل تكاليفه غير زائدة على قدرتهم، بل إنه من أجل ما يحمله من عناصر البقاء والعموم، لجميع البشرية ترك الآصار والأغلال، التي ضربها على بني

إسرائيل، جزاء ظلمهم وعدوانهم، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفي ذلك ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وذلك اليسر والسهولة في أحكامه واضح، لكل من تتبع الشريعة في أصولها وفروعها، وقد زخر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالنصوص التي تدل على ذلك وتؤيده قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[5].

فهذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ تنطق بنفي الحرج في مسائل الدين كلها، وتدل بوضوح على أن الله أراد أن تكون مبنية على أساس من السعة والتيسير والسماحة[6].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 157.
(2) سورة الحج، الآية: 78.
(3) سورة المائدة، الآية: 6.
(4) سورة البقرة، الآية: 185.
(5) سورة النساء، الآية: 28.
(6) د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة، صور من سماحة الإسلام ص 10 ـ ص 11ط: دار المطبوعات الحديثة بجدة سنة 1406هـ/ 1986م.

وإذا تصفحنا كتب السنة وجدناها تحمل وقائع كثيرة من أفعال النبي ﷺ: **«أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»**[7].

وأخرج الإمام أحمد: أنه ﷺ قال: **«إن خير دينكم أيسره»**[8] وأن الصحابة ﷺ سألوه عن أشياء تحرجوا منها، فقال لهم: **«إن دين الله - عز وجل - في يسر ثلاثاً»**[9].

وكان في ذروة وصاياه ﷺ - لقواد الجند، وأمراء الولايات: أن يعملوا على أساس من اليسر ودفع الحرج، وتجنب التشديد، وكل ما كان من شأنه إعنات الناس، والتشديد عليهم[10].

وروى أن النبي ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى الأشعري - حينما بعثهما إلى اليمن - : **«يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»**[11].

ولقد فهم المسلمون الأولون هذا، فدرجوا في مسالك الكمال، وصعدوا في مراقي العلا، يشمل الصفاء كل نواحيهم، ويعمهم الحب والتفاهم في تلاقيهم، فقد وجدوا في كنف دينهم السمح حياة هادئة مستقرة، فسعدوا بظلالها الوارفة، ونعموا بأنوارها الهادية.

لقد وجدوا في هذا الدين ضالتهم المنشودة، وجدوا فيه منهاجاً باراً، حانياً، عطوفاً، يقدم لهم كل ما يطمئنهم ويثلج صدورهم، ويبعد عنهم كل ما يسوءهم ويحزنهم.

لقد شرع الله هذا الدين لعباده، فجعله سهلاً سمحاً واسعاً، ولم يجعله

---

(7) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر ج 1 ص 93.

(8) رواه أحمد في مسنده، ج 5 ص 32 ج 4 ص 338 ورواه الطبراني، في المعجم الصغير ج 2 ص 107، ط: الثانية، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة سنة 1388هـ/ 1986م.

(9) رواه أحمد في مسنده ج 5 ص 69، من حديث عروة الفقيمي.

(10) د. عبد العزيز الربيعة صور من سماحة الإسلام ص11.

(11) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب العلم، باب ما كان النبي يتخولهم بالموعظة كي لا ينفروا ج 1 ص 163 وفي كتاب الأدب، باب قول النبي - ﷺ - **«يسروا ولا تعسروا»** ج 20 ص 524.
ورواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ج 12 ص 42.

ضيقاً حرجاً، لتتفتح النفس البشرية من خلال مناهجه، وتنمو وتزدهر، وقد أشربت حسب عقيدته وتعاليمه، واحترام مبادئه وآدابه، والالتزام بأخلاقه وسلوكياته، بعد أن رأت فيه الوجه الأصيل، للفطرة النقية التي فطر اللّه الناس عليها، من السهولة ووضوح القصد، والبعد عن كل ما من شأنه تكليف الإنسان من أمره عسراً، ووضعه في دائرة الضيق والحرج، إذ يريد اللّه ـ تعالى ـ بنا اليسر، ولا يريد بنا العسر، الأمر الذي يبعث النفوس على الأمل، ويحفز الهمم للنشاط والعمل.

قال اللّه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[12].

إنه على قدر الجهد يكون العمل، وعلى قدر الوسع والطاقة يكون التكليف، وعلى قدر العمل والإنتاج يكون الجزاء، فاللّه ـ سبحانه وتعالى ـ لطيف بعباده، ورحيم بمخلوقاته، لم يكلف البشر فوق طاقتهم، أو يفرض عليهم ما ليس في استطاعتهم، شفقة عليهم، ورأفة بهم، ورفقاً وإحساناً، وتفضلاً منه عليهم، كما أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحاسب العبد إلا بناءً على الواقع الفعلي، لما اقترفت يداه أو تلفظ به لسانه، أو ما اكتسبته جوارحه عن حرية واختيار.

أما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس الأمارة بالسوء وهمساتها بالشرور والآثام، وما قد يعزم العبد عليه، دون أن ينفذ ما عزم عليه، فإن اللّه لا يحاسب الإنسان على مثل هذه الأشياء تكرماً منه، وشفقة على عباده من حيث إنه لم يكلفهم ما لا يطيقون ولم يؤاخذهم بما لا يعلمون، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى

(12) سورة البقرة، الآية: 286.

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[13].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يكلف عباده إلا ما يستطيعون تأديته، والقيام به، ولذلك كان كل مكلف مجزياً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ويقول ابن كثير: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه ـ تعالى ـ بخلقه، ورأفته، وإحسانه إليهم[14]... فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها ولا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه[15].

فالإسلام ـ كما ترى ـ دين السماحة واليسر، جاء بالحنيفية السمحة، التي كانت منهجاً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وسائر الأنبياء ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[16].

لقد خلق الله الإنسان وعلم ضعفه، ومدى طاقته واحتماله، فشرع له بالقدر الميسر الذي يستطيعه، ولا يشق عليه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[17].

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[18].

يقول الفخر الرازي: «هذا عام في كل أحكام الشرع، وفي جميع ما يسره لنا وسهله علينا، إحساناً منه إلينا، ولم يثقل التكليف، كما ثقل على بني إسرائيل»[19].

وإرادة التخفيف عن المسلمين ـ فيما أخذهم الله به من أحكام: هي من حكمة الله ورحمته، ليس لأحد أن ينازع الله في حكمته، أو يمسك عن عباده

(13) سورة البقرة، الآية: 286.
(14) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 1 ص 508.
(15) القاسمي، محاسن التأويل ج 3 ص 734.
(16) سورة الأنعام، الآية: 161.
(17) سورة الملك، الآية: 14.
(18) سورة النساء، الآية: 28.
(19) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج 5 ص 70.

رحمته، لأنه لا متعلق لأحد بهذه الإرادة ولا مطلوب فيها لأحد، إنها خالصة من الله بعباده[20].

ولا يفوت الباحث: أن يعرف أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد هيأ نبيه محمداً ﷺ وأعده على نحو خاص، يتواكب دائماً مع روح الإسلام ومنهاجه، في اليسر، والسماحة، والتخفيف، ورفع الحرج، فكان خير نبي بعث بخير رسالة، لخير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾[21] التي يسهل على النفوس قبولها، ولا يصعب على العقول فهمها، وقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل، وليس الفعل هو الميسر للإنسان، من قبل أن الفعل لا يحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة والإرادة النافذة لإيجاده، مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق، التي توصل إليه[22].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يجعل الشريعة التي دعا إليها الرسول ﷺ إلا لتكون مصدر إشعاع، ومنار هداية، وموئل رحمة منه ـ سبحانه وتعالى ـ إلى عباده، تشع من جوانبها السماحة واليسر، قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾[23].

فالإسلام دين لا تكلف فيه ولا إعنات، ولا تنطع، ولا تشدد، ولقد نعى النبي ﷺ على المتنطّعين، والمتزمتين، ووضح أن عبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ تقوم على الالتزام بأوامره، واجتناب نواهيه، وطاعته بالقدر الميسور الملائم لطبيعة البشر، فلا تجاوز أو تقصير في حق الفرد، وحقوق الآخرين عليه.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من**

(20) عبد الكريم الخطيب التفسير القرآني للقرآن ج 5 ص765، ط: دار الفكر العربي، بمصر.
(21) سورة الأعلى، الآيات: 6 ـ 8.
(22) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج 7 ص 109.
(23) سورة طه، الآيات: 1 ـ 3.

الدلجة»[24].

وعن أبي مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«هلك المتنطعون»** قالها ثلاثاً[25].

وعن أنس ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال أحدهم: وأما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[26].

لقد نهى الإسلام عن الغلو في الدين، من غير مراعاة لحق النفس، وحقوق الآخرين قال رسول الله ﷺ: «لا تغلوا في دينكم، فإنما هلك من كان قبلكم بغلوهم في دينهم»[27].

وقال ﷺ: **«الإسلام متين، فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»**.

ومن سماحة الإسلام ويسره: إباحة طعام أهل الكتاب[28] ومشروعية الرفق بأهل الذمة[29] والرحمة العامة بالناس كلهم، قال رسول الله ﷺ:

---

(24) مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 30 ص 124.

(25) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر ج 1 ص 93.

(26) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ج 16 ص 220.

(27) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ج 9 ص 104.

(28) رواه أحمد في مسنده ج 1 ص 215، 347.

(29) ابن قدامة، المغني ج 9 ص390 تحقيق محمود عبد الوهاب فايد، وعبد القادر أحمد عطا، ط: مكتبة القاهرة سنة 1389هـ/ 1969م.

«الراحمون يرحمهم الرحمن، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[30].

وقال: «من لا يرحم لا يرحم»[31].

لقد جاء الإسلام حكيماً في توجيهاته، شريفاً في وسائله ومقاصده، نبيلاً في أهدافه وغاياته، كريماً عندما قدر ضعف الإنسان، وراعى ظروفه، لأنه أدرى بالمصلح له من المفسد، فتعامل معه برفق وحنان، كما يتعامل الطبيب الماهر مع مريضه على النحو الذي يكفل له السلامة، ويضمن له الصحة والعافية.

والباحث في صفحات يسر الإسلام وسماحته، يجد جوانب متعددة، وريا متجدداً وزاداً لا ينفد.

فالإسلام على يسر في كافة أحوال المسلمين وسائر شؤونهم، ليظفروا بمرضاة اللّه، ولتزدهر بهم شجرة الحياة، لأن كل ما فوق الوسع والطاقة، لا يكلف اللّه به عباده، حتى لا يتطرق إليهم الملل، ولا يشيع فيهم السأم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[32].

لقد راعى اللّه ظروف الإنسان العارضة، وقدر أحواله الطارئة التي تخرج عن إرادته، فنظر إلى ذلك نظرة اليسر والتسامح والتخفيف، رفعاً للإثم، ودفعاً للحرج، فأباح التيمم لعباده عند المرض، أو السفر الذي يمنع من استعمال الماء، أو عند فقدانه توسعة منه على عباده، ورحمة بهم، وذلك بالصعيد الطيب، فاللّه ـ تعالى ـ غني عن عباده ولا يشرع لهم إلا ما فيه الخير والنفع لهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ

(30) د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص 9 ـ 30، ط: مكتبة وهبه بالقاهرة سنة 1397هـ/ 1977م.

(31) رواه أحمد في مسنده، ج 2 ص 160.

(32) سورة البقرة، الآية: 286.

﴿ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[33].

فالإسلام دين السماحة، يريد للمنتسبين إليه اليسر، ولا يريد بهم العسر فلقد رخص الشارع للمريض الذي يضره استعمال الماء، أو المسافر الذي ليس لديه من الماء ما يكفيه لطهارته، أو المنقطع في مكان ليس به ماء: أن يتيمّم صعيداً طيباً، تيسيراً من اللّه ورحمة بعباده. فاللّه ـ سبحانه وتعالى ـ ما يريد ليجعل على المسلمين فيما شرعه حرجاً ما، ولا أدنى ضيق، وأقل مشقة[34].

فلهذا سهل اللّه على المسلمين، ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء، توسعة عليهم، ورحمة بهم[35].

لقد أراد اللّه لعباده اليسر والتخفيف، فأمرهم بالصلاة والقدر الذي يتيسر لهم، وتتحمله قواهم البدنية، حتى لا يسأم الناس، فيملوا الطاعة، والناس منهم المريض، والمسافر والمجاهد، الذي لا يستطيع ذلك، فخفّف اللّه عن الجميع تفضلاً منه وتيسيراً على عباده.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[36].

فاللّه يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل إحصاءً تاماً، فإذا زدتم على

(33) سورة المائدة، الآية: 6.

(34) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الأدب، باب رحمة الولي وتقبيله ومعانقته ج 10 ص 426.

(35) مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 6 ص 64.

(36) سورة المزمل، الآية: 20.

المفروض ثقل ذلك عليكم، وكلفتم ما ليس بفرض، وإن نقصتم شق هذا عليكم، فتاب عليكم، ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ومن عسر إلى يسر، وطلب منكم أن تصلوا ما تيسر بالليل[37].

فلا تتجاوزوا ما قدره لكم رحمة بأنفسكم[38] ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾[39].

فالسفر يفرض على صاحبه أن يسير في برنامج غير برنامجه الذي استمرأ سلوكه في حال الإقامة، كما أنه يفرض عليه تجشم المصاعب من الإدلاج، والسهر، والتعرض للبرد، أو الحر، أو إعواز الماء، وخوف الانقطاع، فهو حينئذٍ ليس بمطمئن البال، ولا يستريح الجسم، ومن أجل ذلك كان السفر مظنة للمشقة والعناء، فكان جديراً بأن يحظى بنوع من اليسر والسهولة في التكاليف، كي يستطيع المسافر القيام بها، دون إدخال له في الحرج[40] ولهذا ليس على المسلمين جناح أن يخففوا من كمية الصلاة، بأن تجعل الرباعية ثنائية[41].

ومن يسر الإسلام وسماحته في الصلاة أنه قد يطرأ على الإنسان ما يجعله لا يستطيع أداء الصلاة المكتوبة قائماً، كما هو الحال في الظروف العادية المألوفة، كأن يكون في حالة خوف من عدو متربص، أو وحش مترقب، أنه في هذه الحالة يصلي كيفما تيسر له، راجلاً أو راكباً، حيثما توجه ولا تسقط بحال. هذا إذا كان منفرداً، أما إذا كانت جماعة: فلها أحكام مبسوطة في كتب الفقه.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ

(37) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 3 ص 55.
(38) مصطفى المراغي، تفسير القرآن، ج 29، ص 120.
(39) سورة النساء، الآية: 101.
(40) القاسمي، محاسن التأويل ج 16 ص 5963.
(41) د. عبد العزيز الربيعة، صور من سماحة الإسلام ص 50.

كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾[42].

يقول القرطبي: فكما أمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة بحال القنوت، وهو: الوقار، والسكينة، وهدوء الجوارح، وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة، ذكر حالة الخوف الطارئة أحياناً ويبين أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد بحال، ورخص لعباده في الصلاة رجالاً على الأقدام، وركباناً على الخيل والإبل ونحوهما، إيماءً وإشارة بالرأس حيثما توجه. هذا قول العلماء وهذه هي صلاة الفذ، الذي قد ضايقه الخوف على نفسه، من سبع يطلبه أو من عدو يتبعه، أو سبيل يحمله، وبالجملة فكل أم يخاف منه على روحه فهو مبيح ما تضمنته هذه الآية[43].

فإن خاف المسلمون أي ضرر من القيام قانتين لله، صلوا كيفما تيسر لهم راجلين أو راكبين، وفي هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة، وبيان أنها لا تسقط بحال، إلا حال الخوف على النفس أو المال أو العرض مظنة العذر في تركها، كما يكون السفر عذراً في ترك الصيام، والسبب في عدم سقوطها على المكلف في كل حال، إنها عمل مذكر بسلطان الله ـ سبحانه وتعالى ـ المستولي علينا، وعلى العالم كله، وما الأعمال الظاهرة إلا مساعدة على العمل القلبي المقصود بالذات، إذ من شأن الإنسان أنه إذا أراد عملاً قلبياً، يحتاج إلى جمع الفكر، وحضور القلب أن يستعين على ذلك ببعض ما يناسبه من قول وعمل.

فإذا تعذر عليه بعض الأعمال البدنية فلا تسقط العبادة القلبية، وهي: الإقبال على الله، مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر المستطاع، ويكون ذلك حين قتال العدو، أو الفرار من أسد، فيصلي المكلف راجلاً أو راكباً إن حانت الصلاة، لا يمنعه من ذلك الكر والفر، والطعن والضرب، ويأتي من أقوال الصلاة وأفعالها بما يستطاع من ركوع وسجود، ولا يلتزم التوجه للقبلة[44].

(42) سورة البقرة، الآية: 239.

(43) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 2 ص 347.

(44) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج 1 ص 1031.

فالصلاة لما كانت خير ذكر، قصد أمر اللّه بها المؤمن، وكلفه بأدائها على أي وجه استطاعه، والمؤمن من يجب عليه أن يذكر اللّه في كل أحيانه، كما كان يفعل النبي ﷺ لأنه بذكر اللّه تطمئن القلوب، وبالتفكير في ملكوته وآلائه يرسخ الإيمان، والصلاة من الذكر، فإن صلى الإنسان وكان مريضاً يشق عليه القيام، صلى قاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، يومىء إيماءً، فما جعل اللّه على المسلمين في الدين من حرج.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[45] وإذا كانت الآية في الصلاة ففقهها: إن الإنسان يصلي قائماً، فإذا لم يستطع فقاعداً فإن لم يستطع فعلى جنبه[46].

ما أعظم رحمة اللّه بعباده، وما أجلها من رحمة، وما أيسر تشريعاته التي شملت الدين كله، فقد جمع اللّه في تشريعاته السمحة بين خيري الدنيا والآخرة، فأمر عباده بالضرب في الأرض، إما سعياً على العيش، وإما جهاداً لنشر دينه وإعلاء كلمته، مع تيسير العبادة لهم في السفر صلاة وصوماً حسب حالهم وطاقتهم.

والنبي ﷺ كان مثالاً يحتذي لأمته في عدم التضييق والتشديد، فلقد كانت صلاته وخطبه ومواعظه، لا بالقصيرة المخلة، ولا بالطريقة المملة، وكذلك تعلم منه، واقتدى به أتباعه ﷺ عن عمران بن الحصين ـ رضي اللّه عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[47].

---

(45) سورة آل عمران، الآية: 191.

(46) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج 2 ص 1553.

(47) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم تطق قاعداً فعلى جنب ج 2 ص 587.

وعن المغيرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«صل بصلاة أضعف القوم»**[48].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: **«من هذه»**؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها قال: **«مه عليكم بما تطيقون... فوالله لا يمل**[49] **حتى تملوا»**[50].

فالإسلام ـ كما ترى ـ: هو المنبع الصافي، الذي يستقي منه المسلم ما يصلح حاله في الدنيا والآخرة، مع التيسير عليه، حتى يتمكن من أداء ما كلف به على خير وجه.

لقد راعى الإسلام السهولة واليسر، والبعد عن الغلو، والتشدد، فراعى ظروف كل إنسان في تشريعاته الرحيمة، قوة وضعفاً، صحة ومرضاً، فصار بلا ريب دين الفطرة، بكل ما تتسع له هذه الكلمة من مضمون، ومدلول، فعندما شرع الصوم راعى ظروف المسافر والمريض، الذي يشق عليه الصوم، والمرأة إذا كانت حاملاً أم مرضعاً، والشيخ الهرم، والذين يقومون بأعمال شاقة، فخفف عنهم، وجعل لهم من الأحكام الميسرة السمحة، ما يجعلهم يشعرون بالطمأنينة والرضا، فيقبلون على طاعة الله بقلوب راضية ونفوس مطمئنة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[51].

---

(48) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري ـ كتاب الآذان، باب من شكى أمامه إذا طول ج 2 ص 200.

(49) (لا يمل) أي يعطي الثواب، ولا يعجز، ولا يعرض عن العبد، ولا يقطع عنه الإقبال عليه بالرحمة والإحسان. (حتى تملوا) أي تقصروا في طاعة الله، وتعرضوا عن عبادته بعد الدخول فيها، لملالة النفس، ابن حجر، فتح الباري كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه ج 1 ص 102.

(50) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله ج 1 ص 42.

(51) سورة البقرة، الآيتان: 183 ـ 184.

فالمريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيام أخر[52].

وصوم رمضان في أصل مشروعيته رحمة وتيسير، وفضل وإحسان، فحينما ننظر إلى هذه العبادة في مراحلها المختلفة، وجوانبها المتعددة، نجد اليسر والسماحة صفة بارزة فيها، فالأيام التي يجب صيامها قليلة جداً، بالنسبة لأيام السنة، قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾[53].

إن الإسلام يتسم باليسر والسماحة، مما دفع الكثير من الناس إلى الدخول في هذا الدين، الذي جاء بالتكاليف، التي تتجاوب معها الفطرة، إذ ليس في العقائد التي اعتنقتها البشرية على مدى تاريخها الطويل، كعقيدة الإسلام السمحة، التي انتظمت شؤون الخلق ديناً ودنيا، على أحسن نظام، وأكمل منهج، لقد راعى الإسلام في جميع تشريعاته الضعفاء والمرضى وأصحاب الأعذار، فلم يكلفهم فوق طاقتهم، بل شرع ما يناسبهم من الرخصة والتيسير والتخفيف، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[54].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أوجب الصوم على سبيل السهولة واليسر، إذ أنه قد أوجبه في مدة قليلة من السنة، ثم ذلك القليل ما أوجبه على المريض، ولا على المسافر، وكل ذلك رعاية لمعنى اليسر والسهولة[55].

وجاء في تفسير المنار، في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

(52) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 1 ص 206.

(53) سورة البقرة، الآية: 184، وانظر د. عبد العزيز الربيعة، صور من سماحة الإسلام ص 62 ـ 63.

(54) سورة البقرة، الآية: 185.

(55) الفخر الرازي، التفسير الكبير ج 3 ص 98.

﴿يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾[56].. هذا تعليل لما قبله، أي يريد فيما شرعه من هذه الرخصة في الصيام وسائر ما يشرعه لكم من الأحكام أن يكون دينكم يسراً تاماً، لا عسر فيه، وفي هذا التعبير ضرب من التحريض والترغيب في إتيان الرخصة، ولا غرو، فاللّه يحب أن تؤتى رخصه، كما تؤتى عزائمه، وذلك بأن اللّه لا يريد إعنات الناس بأحكامه، وإنما يريد اليسر بهم وخيرهم ومنفعتهم[57].

لقد بنى الإسلام تشريعاته كلها على اليسر والسماحة والرحمة، ولم يقصد بتكاليفه ـ على وجه عام ـ عنتاً ولا إرهاقاً، ولم يأمر بشيء فوق طاقة البشر، وإنما جعل لهم رخصاً، إذا عجزوا عن القيام بالتكاليف.

وإذا كانت آية اللّه قد أوضحت أن الغرض من التشريع الإسلامي هو التيسير فإن سنة رسول الله ﷺ: **«قد واكبت دعوة القرآن الكريم»**، مما دفع الناس إلى النظر في الإسلام، والبحث عنه، والدخول فيه.

روى ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ قال: قال: خطب رسول الله ﷺ ـ فقال: **«إن اللّه قد أعطى كل ذي حق حقه، ألا أن اللّه فرض فرائض وسن سنناً، وحد حدوداً وأحل حلالاً، وحرم حراماً، وشرع الدين، فجعله سهلاً، سمحاً، واسعاً، ولم يجعله ضيقاً»**[58].

وكل ما سبق من غير شك فرائض حتمية، لها إيحاءاتها الحيوية، والمهمة، والواجبة، التي لا سبيل إلى غيرها، مما دعا الناس إلى التفكر في الإسلام، والدخول في عتبته.

على أن دين الإسلام رفقٌ كله، لا حرج فيه، ولا عنت، ولا إصر، ولا مشقة ولا تزمت، ولا جمود، وإنما يسر وتخفيف، وبر ورحمة، واستصحاب لمصلحة الخلق، واعتبار لمعاذيرهم، ورعاية لأحوالهم، في استيعاب

---

(56) سورة البقرة، الآية: 185.

(57) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ج 2 ص 132.

(58) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ج 11 ص 213.

وشمول، وليس على المسلم الحق من شيء بعد بذل طاقته، وأداء وسعه، ولا تكليف له مطلقاً، ولا التزام فوق هذا الوسع، وهذه الطاقة.

وهذا في ذاته من خير ما يوحي بمرونة الإسلام، وفطريته، ويسره وسماحته وإنسانيته، وعدله وقسطاسه، وقصده.

قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾[59].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾[60].

يقول ابن كثير: «يريد اللّه أن يخفف عنكم في شرائعه، وأوامره، ونواهيه وما يقدره لكم»[61].

قال الإمام أحمد بسنده إلى عروة، قال: كنا ننظر النبي ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا خرج في كذا... فقال رسول الله ﷺ: **«إن دين اللّه في يسر، ثلاثاً يقولها»**.

فالإسلام يفرض على المسلم - وهو يمارس شعائره - ألا يتجاوز وسطيته، فيشق على نفسه، ويكلفها فوق طاقتها، إذ أن هذا الدين متين واسع الأطراف.

وقد يؤتى المتزمت المتشدد من قبل نفسه، فتعجز عن عونه ومساعدته، وتنقطع به وسط الطريق على صورة قد لا تتفق ودين اللّه - عز وجل - قال - ﷺ -: **«إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»**[62].

وإن الباحث ليقف على سيرة الرسول - ﷺ - الأسوة الحسنة، فيجدها في سلوكه، وعاداته، وعباداته، ومعاملاته، إذ كان اليسر والتيسير والسماحة

---

(59) سورة طه، الآيتان: 1 - 3.

(60) سورة النساء، الآية: 28.

(61) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 2 ص 233.

(62) رواه البخاري، في التاريخ الكبير، ج 1، ق 1، ص 103، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

دأبه، وديدنه، الذي يلتزم به، ويوصي به أمته وأصحابه ويحذرهم من أن يتجاوزوه، ويبين لهم أن خير دينهم أيسره، وأن يكون التيسير والتبشير وتسكين النفوس، وطمأنتها، وتهدئة خواطرها، وعدم فتنها وإفزاعها وإقلاقها، هدفاً أصيلاً من أهدافها، التي تدعو إلى انتشار الإسلام.

وإذا كان ـ كما عرفنا ـ أن الإسلام خير كله، ويسر كله، وأن خير الدين أيسره، فإن خير الحياة أيضاً ـ أيسرها وأقربها إلى الفطرة، وإذا كان اللّه ـ تعالى ـ قد حرم على الناس أشياء، فقد حرمها لخبثها، بينما أحل أكل الطيبات.

فلا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه، ويجنح بها إلى التضييق، والحرج والعنت، والمشقة، ويمنعها من المباح، (يحبس عنها الطيبات التي أحل اللّه).

إن نفس الإنسان مطيته، إذا أحسن استخدامها، وأخذها باليسر، وعدم إعناتها والمشقة عليها، سلمت وبقيت له تؤدي مهامها، المنوطة بها، والغايات المتوخاة منها.

ما أجلّ الإسلام وما أعظمه من دين، وهو يوجه الدعاة والمصلحين، أن يحتكموا في عملهم، ومهمتهم إلى أدب الدعوة ومنهجها من الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، وأن يشكل الرفق والهواد واللين، إطاراً يدور هذا المنهج الرباني في فلكه، ويلتزم به.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[63].

فهذه الآية نزلت بمكة المكرمة، في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين اللّه بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة[64].

(63) سورة النحل، الآية: 125.

(64) الجامع لأحكام القرآن ج 4 ص 3816.

فاللّه سبحانه وتعالى ـ كما ترى، يأمر نبيه الكريم ـ ﷺ ـ بأن تكون دعوته قائمة على المنهج، الذي يمثل الكمال كله، في غس المعارف وتربية النفوس، ومن الدعوة بالحكمة: مراعاة مقتضى الحال، ومخاطبة كل قوم بما يعرفون، وأخذهم بالرفق، والتيسير، والسماحة، والتلطف، واختيار الوقت المناسب، للموعظة التي يراد وعظهم بها، حتى تتقبلها النفوس، وتنتفع بما فيها من خير... إن الرسول ـ ﷺ ـ طبيب يحمل الدواء إلى العقول والقلوب والأرواح. ومن هنا كانت مهمته عسيرة شاقة، يحتاج معها إلى بصيرة نافذة، تتدمس إلى خفايا النفس الإنسانية، وتضع يدها على موضع الداء، ثم تختار من الدواء ما يشفي العلة، ويذهب الداء[65].

وإذا كان منهج الدعوة ليس إلا من صنيع الحق ـ تبارك وتعالى ـ ومن تنزيله فلقد كان الوحي يوجه الرسول ـ ﷺ ـ إلى أحكم آدابه، وأمثل أساليبه مع المدعوين، وذلك بأن يفتحوا لهذا الدين قلوبهم، ويجيلوا فيه عقولهم، ويستلهموها صواب الفكر، ورشاد الموقف، وحيدة النفس، في روية وأناة، من غير انغلاق، ولا تحجر، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾[66].

وإنما طلب منهم التفكير، وهم متفرقون اثنين اثنين، أو واحداً واحداً، لأن في الازدحام تهويش الخاطر، والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام، وقلة الإنصاف[67].

والآية الكريمة تكشف عن أسلوب الدعوة الإسلامية، القائم على مواجهة العقل ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، وإعطائه حقه في طلب الدليل المقنع، والبرهان الواضح ثم الاعتراف له بما يقتضي به بعد النظر السليم، المجرد من الهوى، المبرأ من التحدي والعناد.

---

(65) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني، ج 14 ص 398.

(66) سورة سبأ، الآية 46 .

(67) مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 32 ص 96.

فهذه رسالة الإسلام في الإنسانية، إنها تريد أولاً وقبل كل شيء: أن تحرر العقل من العادات الفاسدة والمعتقدات الباطلة، التي استولت عليه، وشلت إرادة التفكير فيه، فإذا تحرر العقل من هذه الآفات، وتخلص من القيود، فقد كسب نصف المعركة في صراعه مع الباطل، ثم كان عليه بعد هذا: أن يكسب النصف الآخر، حتى يتخلص من الضلال ويخرج من عالم الظلام على عالم الهدى والنور وهو أن يدير عقله على هذا الوجود، وأن ينظر فيه بعقله المتحرر، فإنه إن فعل، . فلا بد إن يهتدي إلى الله، ويتعرف إليه، ويؤمن به[68].

قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[69].

والمعنى ـ كما يقول الآلوسي ـ: ولا تجادلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بالتي هي أحسن، أي بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب الكظم، والمشاغبة بالنصح، والتسرع بالأناة[70] فلا تجادلوا من أراد الاستبصار في الدين، إلا باللين والرفق[71].

ولقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ أحرص الناس على تبليغ الإسلام وأحناهم على تبليغ الدعوة، يبذل قصارى جهده في الدعوة إلى الله، ونشر دينه في الآفاق، رغبة في هدايتهم وإيمانهم، وكان يتوسل إلى ذلك بشتى صنوف القول، الذي يتفجر بالرفق، ويفيض باللين، ويشع بالحرص ويتألق بالرغبة الأكيدة في هدايتهم.

فالإسلام دين اليسر والسماحة، لا يمكن أن تلمس معه حرجاً، أو مشقة في أي جانب من جوانبه، عقيدة وشريعة، وعبادات، ومعاملات، قال تعالى:

---

(68) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآن للقرآن، ج 21 ص 838.

(69) سورة العنكبوت، الآية: 46.

(70) الألوسي، روح المعاني، ج 6 ص 416، ط: دار الفكر العربي بيروت مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 21 ص 5.

(71) مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 21 ص 5.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[72].

فاتقوا اللّه في حدود ما تحمل أنفسكم، وما تتسع طاقتكم له، لأن هذا الدين سهل سمح، لا ينتفع به، إلا إذا أخذ سمحاً سهلاً، تتقبله النفوس، وتنشرح له الصدور، شأنه في هذا شأن الطعام، لا يفيد منه الجسم، إلا إذا طابت له النفس واشتهته، واستساغت طعمه، واستطابت مضغه وبلعه[73].

فالإسلام دين واقع، ودين رحمة، وعدل وإحسان وتيسير وسماحة، لا يرى إلا أنهم بشر تتحكم فيهم نوازع وعواطف، وتعرض لهم عوارض الضعف ويلحقهم ما يلحق الكائن الحي.

فقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ هو الميزان الذي يقيم عليه المؤمن أمر دينه كله، وأن يتقي هذه الفتن التي تهب عليه من كل جهة يتقيها بقدر ما يملك من قوة وما يتحمل من جهد، لأن كل نفس لها طاقة من الاحتمال، ولها قدر من القوة، وأنه على طاقتها وقوتها تحاسب، فتجزى بما كسبت، وعلى ما اكتسبت[74].

عن عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ قالت: «ما خير رسول اللّه ـ ﷺ ـ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول اللّه ـ ﷺ ـ إلا أن تنتهك حرمة اللّه فينتقم للّه بها»[75].

يقول ابن حجر شرح الحديث: فيه الحث على ترك الأخذ بالشيء المعسر والاقتناع بالميسر، وترك الإلحاح فيما لا يضطر إليه، ويؤخذ من ذلك الندب إلى الأخذ بالرخص ما لم يظهر الخطأ[76].

ولقد كان صلوات اللّه وسلامه عليه، القدوة في التوجيه والتربية، على

---

(72) سورة التغابن، الآية: 16.

(73) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن ج 17 ص 1105.

(74) المصدر السابق، ج 28 ص 992.

(75) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ـ ﷺ ـ ج 6 ص 566.

(76) ابن حجر، فتح الباري، ج 6 ص 567.

القصد والتيسير، والتوسط، والاعتدال، فما أعرض عن أمر إلا لحكمة، تتمثل في رغبته في أن يرفق ويسر على أمته في كل أمورهم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: **«دعوني ما تركتكم، فإن ما أهلك من كان قبلكم سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وما أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»**(77).

قال ابن حجر: قال النووي: هذا من جوامع الكلم، وقواعد الإسلام، ويدخل فيه كثير من الأحكام كالصلاة لمن عجز عن ركن أو شرط، فيأتي بالمقدور، وكذلك الوضوء، وستر العورة، وحفظ بعض الفاتحة، وإخراج بعض زكاة الفطر لمن لم يقدر على الكل.

وكان ـ ﷺ ـ كثيراً ما يركز على أن خير الطاعة، وأكثرها قبولاً، ما كانت يسيرة، سهلة، سمحة، لا حرج فيها، ولا مشقة، ولا تزمت وأنّ القصد والتوسط ينبغي أن يكون هدف المسلم، وغايته. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«إن خير دينكم أيسره»**.

وبعد هذا الذي عرضنا له في إيجاز: نجد أن مجالات السماحة واليسر في الإسلام تتصل بكل أمورنا، وفي جميع ما يتصل بنا: في الدين، والدعوة والعادة والعبادة، والحكم والعمل، والنفس، والأسرة، والمجتمع، والسلم، والحرب، وغير ذلك مما له بنا اتصال.

حقاً إن الإسلام دين السماحة واليسر، لا يشق على الناس، ولا يكلفهم من أمرهم عسراً، في مطعمهم ومشربهم، وعباداتهم، وسائر أساليب حياتهم.. إنه ـ دائماً ـ يضفي على الداخلين فيه هالة، قوامها النبل، والسمو والترفع، والعطاء، والتسامح، واليسر والرحمة.. وأن تكون نفوسهم في الذرا، وأيديهم في العليا يوثقون عراهم بمجتمعهم، وينقلون على متون سلوكهم وواقعيتهم موارث دينهم، وتبعات تكاليفهم، ومقاليد ما بين أيديهم من أمانة الحق، إلى من خلفهم حتى تظل كلمة الله موصولة في البشر.

---

(77) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الاعتصام باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ج 13 ص 251.